

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

فلسفة
الحرب والسلم والحكم

إعداد

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٣٨هـ /٢٠١٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الهادي إلى سبل الرشاد ، القائل في كتابه العزيز : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}(١)، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله الذي أرسله ربه (عز وجل) رحمة للعالمين فقال : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}(٢)، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد:

فلا شك أن قضية الحرب والسلم وأحكامهما وقضية الحكم ونظامه وآلياته من أهم القضايا التي تشغل بال أي مجتمع ، بل تشغل بال العالم كله والبشرية جمعاء ؛ لما لهذه القضايا من أثر بارز في حياة الأفراد والمجتمعات والدول على حد سواء ، وبخاصة قضية نظم الحكم التي تعد لازمة من لوازم العمران وشرطًا رئيسًا في إقامة الدول التي لا تبنى ولا تصير دولا إلا بأرض وشعب وحكومة ونظام حكم ، فلا استقرار لدولة بلا نظام مستقر ، ولا سيما في عالم اليوم ، عالم التحالفات والتكتلات ، عالم الاقتصاد والاستثمار ورءوس الأموال عابرة القارات ومتعددة الجنسيات ، وعلى حد
قول الشاعر العربي :

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَـراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا
وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عُمُدٌ
وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ

---

(١) البقرة ، الآية: ٢٠٨ .
(٢) الأنبياء ، الآية: ١٠٧ .

فلكل صنعة أصولها ، ولكل دولة قوامها ومقوماتها التي لا تبنى إلا عليها ولا تستقر إلا بها.

كما أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب ، أو فلسفة السلم ، أو فلسفة الحكم ، حتى أن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السلم ، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السلم ، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها ، ومن ثم وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها ، ثم الانتقال من التكفير إلى التفجير ، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم وحصره في قضية الخلافة ومحاولة فرضها بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا ، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام ، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات ، مما يتطلب بعمق ووضوح تامَّين رؤية ثاقبة وتحليلاً عميقًا يراعي متغيرات العصر ومستجداته ، ويعمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة ، بإلقاء الضوء على هذه القضايا وتصويبها ، وتنقيتها مما علق بها من شوائب، وبيان الوجه الصحيح لفلسفة الحرب والسلم والحكم ، حتى لا تتخذ تلك الجماعات من فرض رؤاها ومفاهيمها الخاطئة في ذلك ذريعة للتطرف والعنف وتدمير المجتمعات وتفكيك الدول أو تدميرها ، مع ما يتبع ذلك ويصاحبه من تشويه لصورة ديننا الحنيف وتنفير الناس منه وتبغيضهم فيه ، مما قد يحملهم على التربص به ، وبأتباعه ومعتنقيه ، ويعطي بعض الحمقى والناقمين عليه أو على أتباعه ، ذريعة للنيل منه ومنا تحت مظلة محاربة الإرهاب الذي نحن وديننا منه براء ، فنحن ضحايا ولسنا جلَّادين ، وهو ما نحاول أن نلقي عليه الضوء في ثنايا هذا الكتاب.

والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

□

المبحث الأول

فلسفــة الحــرب

الحرب ليست غاية ولا هدفًا لأي دولة رشيدة أو حكم رشيد ، كما أنها ليست نزهة أو فسحة ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا)(١).

ويقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى(٢):

وَمـا الحَـربُ إِلّا مـا عَلِمتُـم وَذُقتُـمُ
وَمـا هُوَ عَنهـا بِالحَـديثِ المُرَجَّـــمِ

مَتى تَبعَثـوهـا تَبعَثوهـا ذَميمَـــةً
وَتَضـرَ إِذا ضَرَّيتُمـوهـا تَضــرَمِ(٣)

فَتَعرُكُّمُ عَـركَ الرَحــى بِثِفالِهـــا
وَتَلقَح كِشافًـا ثُمَّ تَحمِــل فَتُتئِـمِ(٤)

فَتُنتَـج لَكُـم غِلمــانَ أَشـأَمَ كُلُّهُــم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، بَاب كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَّرَ الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: معلقة (أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكَلَّمِ) ، ص : ١٠٦، تحقيق: علي حسن فاعور- ط: دار الكتب العلمية : ١٤٠٨- ١٩٨٨.

(٣) تَضْرَ: الضّرى: شدة الحرب واستعار نارها ، وضرمت النار تضرم ضرمًا : اشتعلت واشتدت (شرح المعلقات السبع ، حسين بن أحمد الزَّوْزَني) ص١٤٣، ط: دار إحياء التراث العربي.

(٤) تلقح: اللقاح: حمل الولد ، ومنه: لقحت الناقة ، كشافا: الكشاف: أن تلقح النعجة في السنة مرتين ، ونتجت الناقة تنتج نتاجًا. وتتئم: تلد توأمين (المصدر السابق).

كَأَحمَرِ عــادٍ ثُمَّ تُرضِــعْ فَتَفطِــمِ
فَتُغلِل لَكُم مـا لا تُغِــلُّ لِأَهلِهــا
قُـرىً بِالعِــراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ
(١)

غيـر أن هذه الحـرب قد تكون ضـرورة للدفـاع عن النفس والعرض، والمال ، والديار والأوطان ، وكيان الدول ووجودها ، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها.

إن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في رد الاعتداء ودفع الظلم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}(٢)، ويقول سبحانه: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }(٣)، ويقول سبحانه : { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}(٤) ، بل إن الإسلام قد دعانا إلى الإقساط إلى جميع المسالمين وبرّهم وإجارتهم إن استجاروا بنا ، فقال سبحانه:{لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}(٥)، وقال (عز وجل):{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}(٦).

---

(١) والمراد : تنتج لكم ما تكرهون من الدمار والدم لا ما تحبون مما تنتجه قرى العراق الآمنة المستقرة آنذاك .
(٢) الحج ، الآية: ٣٩ .
(٣) البقرة ، الآية: ١٩٠ .
(٤) البقرة ، الآيات: ١٩١ - ١٩٣.
(٥) الممتحنة ، الآية: ٨ .
(٦) التوبة ، الآية: ٦ .

وفي هذه النصوص ما يؤكد أن الإسلام لا يعرف الاعتداء أو الظلم ، إنما شرع القتال أصلاً لرد العدوان والاعتداء ، فأذن الحق سبحانه للذين يقاتلون ظلمًا بأن يهبُّوا للدفاع عن أنفسهم ، على ألا يعتدوا ، وألا يغدروا ، وألا يسرفوا في الدماء ، أو يتوسعوا فيما أذن لهم به من دفع العدوان.

وقد نهانا ديننا فقط عن ولاية من يقاتلوننا ويخرجوننا من ديارنا أو يعملون على ذلك ، فقال سبحانه: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(١).

وحتى في الحرب التي هي ردّ للاعتداء نهى الإسلام نهيًا صريحًا عن تخريب العامر ، وهدم البنيان ، وكان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجرًا ، وألا يحرقوا زرعًا ، أو يخربوا عامرًا ، أو يهدموا بنيانًا ، إلا إذا تحصن العدو به واضطرهم إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلا ، وألا يتعرضوا للزراع في مزارعهم، ولا الرهبان في صوامعهم ، وألا يقتلوا امرأة ولا طفلا ولا شيخًا فانيًا ما داموا لم يشتركوا في القتال.

هذا ، وقد ظل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاما يتحملون أذى المشركين دون أن يؤذن لهم بالقتال ولو دفاعا عن أنفسهم لأسباب من أهمها وفي مقدمتها : استنفاد سائر الوسائل السلمية في الدعوة المبنية على الحكمة والموعظة الحسنة ، وتربية المؤمنين على أقصى درجات ضبط النفس وتحمل الأذى في سبيل الله ، وإقامة الحجة على الخصم ، ومنها عدم التكافؤ في المواجهة آنذاك إذ كانت المواجهة بكل حسابات البشر محسومة لصالح المشركين ، مما ينذر بخسائر فادحة في صفوف المستضعفين من المسلمين حال التعجل في المواجهة ، والإسلام حريص على حفظ الدماء كل الدماء ، فما بالك

---

(١) الممتحنة ، الآية: ٩ .

بدماء أبنائه المؤمنين به المدافعين عنه المستعدين للتضحية بأغلى ما يملكون وكل ما يملكون في سبيله ، ومنها لفت أنظارنا إلى أهمية الإعداد الجيد أفرادًا وتسليحًا وتخطيطًا قبل الدخول في أي مواجهة مالم تفرض علينا فرضًا ، ولم يكن ثمة بد من الخروج لمواجهة العدو على نحو ما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مواجهة المشركين في بدر وأحد والخندق وغيرها من الغزوات.

وفي التأكيد على هذا الإعداد الجيد والأخذ بأسباب القوة والمنعة ، يقول الحق سبحانه : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ}(١).

على أن الغاية هنا والمراد من هذه الآية إنما هو ردع العدُو من أن
يعتدي علينا ، فلو تحقق الردع دون قتال فإنها لأسمى غاية وأنبل هدف ،
حيث يقول الحق سبحانه في شأن غزوة الأحزاب:{ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}(٢) ، وفي شأن يوم الحديبية يقول سبحانه ممتنًّا على عباده المؤمنين بتجنيبهم القتل والقتال:{ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }(٣)، فلما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام إلى المدينة ، وصار لهم بها دولة ووطن يدافعون عنهما كان الإذن بالقتال الدفاعي في قوله تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}(٤).

---

(١) الأنفال ، الآية: ٦٠ .
(٢) الأحزاب ، الآية: ٢٥ .
(٣) الفتح ، الآية: ٢٤ .
(٤) الحج ، الآية: ٣٩ .

مع ضرورة الوقوف عند الآتي:
١- في قوله تعالى: {أُذِنَ} عبَّر في الإذن بالبناء للمجهول ولم يقل سبحانه : أذن الله ، ليكون العمل بالإذن على قدر الحاجة والضرورة ، وألا يستخدم الإذن على إطلاقه ، فيؤدي ذلك إلى الإسراف في القتال والدماء .
٢ - في قوله تعالى:{ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ} لم يقل سبحانه : أذن للمؤمنين ، أو
للمسلمين ، أو للمضطهدين ، أو من أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فلم يكن كل ذلك وحده مسوغًا لاستخدام هذا الإذن ، وإنما هي علة واحدة أن يُقاتَلوا ، وأن تكون المبادرة والمبادأة من عدوهم بالقتال ، ولذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون يوصون قوَّاد جيوشهم ألا يبدأوا أحدا بقتال حتى يكون العدو هو البادئ بالبغي والعدوان ، وألا يأخذوا أحدا غدرا أو خيانة حتى لو علموا بنيته فيهما ، حيث يقول الحق سبحانه:{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}(١) أي: فإن خفت من قوم غدرًا أو خيانة فاطرح إليهم عهدهم ، ورده عليهم ، وتحلل منه قبل الشروع في قتالهم.
٣ - ولم يكتف النص القرآني في قضية الإذن بأن يكون العدو هو البادئ بالقتال ، بل جعل قتال المسلمين لأعدائهم لأجل رد بغيهم وظلمهم وعدوانهم عنهم أو عليهم ، فجعل العلة الثانية والاشتراط الثاني للإذن ظلم عدوهم لهم ، حيث يقول الحق سبحانه:{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا}(٢)، وهنا يأتي التأييد الإلهي حتى لو كانوا قلة مستضعفين {وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، طالما أن العلة هي رد الظلم وحماية الدولة والوطن لا البغي ولا الطمع .

وعندما ننظر إلى سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الجانب نجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما علم بمقدم قريش في غزوة بدر جمع (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وجعل

---
(١) الأنفال ، الآية: ٥٨ .
(٢) الحج ، من الآية: ٣٩ .

يقول : (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ)، فقام سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو (رضي الله عنه) فقال: " يا رسول الله ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ}(١)، وَلَكِنْ نقول: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فو الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ (٢) لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ ، حَتَّى تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِهِ.

وهؤلاء الصحابة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، فأحب رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأن نصوص بيعة العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج المدينة ، إذ كانوا قد بايعوا النبي (صلى الله عليه وسلم) على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأعراضهم وأموالهم مادام معهم داخل المدينة ، ولم تكن البيعة قد تعرضت لخروجهم معه خارج المدينة ، فأحب (صلى الله عليه وسلم) أن يسمع رأيهم صراحة ، فكلما تحدث واحد من المهاجرين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (أشيروا عليَّ أيها الناس) ، وهو يريد أن يسمع رأي الأنصار ، حتى فطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سيدنا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ (رضي الله عنه)، فقال: وَاللهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ : أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك ، فوالّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ

---

(١) المائدة ، الآية: ٢٤ .

(٢) برك الغماد : بكسر الغين المعجمة ، موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن (معجم البلدان ، ياقوت الحموي (١ /٣٩٩) ط: دار الفكر– بيروت.

فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا ، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: (سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ) (١).

ولهذا الموقف وغيره من المواقف العظيمة لسيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) كانت البشرى والمكافأة العظيمة من الله تعالى له عند وفاته ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ)(٢).

أما غزوة بني قينقاع فترجع إلى ما كان من يهود بني قينقاع الذين كان قد ملأ الحقد نفوسهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بعد أن أعزهم الله بالنصر في بدر ، فقالوا : " يا محمد ، لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانُوا أَغْمَارًا لاَ يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا ، وكشف جماعة منهم عورة امرأة مسلمة في السوق ، فلما هبَّ أحد المسلمين لسترها والدفاع عنها اجتمعوا عليه وقتلوه ، فكان لابد من التجهز لقتالهم ردعًا لبغيهم وخيانتهم ، فجهز النبي (صلى الله عليه وسلم) جيشًا لقتالهم وانتقل سريعًا إلى ديارهم وحصونهم ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى الاستسلام والنزول على حكمه (صلى الله عليه وسلم) الذي قضى بإخراجهم من ديارهم "(٣).

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (٤٨/١) ، وسيرة ابن هشام- اسْتِيثَاقُ الرَّسُولِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ أَمْرِ الْأَنْصَارِ (٦١٥/١) ط : مصطفى البابي الحلبي بمصر، ودلائل النبوة = = للبيهقي (٣٤/٣) ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب المناقب - بَاب مَنَاقِبِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير(٣٣/٢)، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، وجوامع السيرة لابن حزم (١٥٤/١) ط: دار المعارف- مصر ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٤٥) ط: دار الكتاب العربي- لبنان- بيروت .

وفي غزوة بني لحيان ، كان بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من الصحابة بالرَجيع ، وتسببوا في قتلهم واستشهادهم (١).

وفي غزوة ذي قَرَد أو غزوة الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم (٢).

وفي أُحد كانت قريش قد جاءت لتثأر لقتلاها في بدر ، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للقائهم ، ولم يبدأ هو ولا أصحابه بالقتال أو طلب قريش ، إنما هي التي أتت بقَضِّها وقضيضها (٣) وخيلها وخيلائها باغية تريد استئصال دعوته (صلى الله عليه وسلم) والثأر لقتلاها في بدر .

وفي غزوة حمراء الأسد كان أبو سفيان قد عزم إثر أُحُد على العودة إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين ، فندب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى الخروج لملاقاتهم ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لا يخرج معنا إلا من شهد أحدًا) ، فخرج معه أصحابه وجراحهم تثعُب دمًا ، وهنا خشي أبو سفيان ومن معه أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد جهز جيشًا جديدًا من أصحابه ، ففضلوا الهرب والانصراف إلى مكة حتى لا يضيعوا ما أنجزوه في أُحد ، وبقي النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه ثلاثة أيام في حمراء الأسد لم يمسسهم سوء (٤) ، وفي شأن هذه الغزوة نزل قول الله تعالى : {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢ /٢٤٥) ، تاريخ الطبري (١٠٥/٢) .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٨/٢) ، تاريخ الطبري (١٠٥/٢) .
(٣) القضّ : الحصى الكبارُ ، والقضيض : الحصى الصغارُ ، والمعنى : جاءوا جميعًا بكبارهم وصغارهم ، ومنه الحديث (دخلت الجنةَ أُمّةٌ بقَضّها وقَضِيضِها) (القاموس المحيط للفيروز آبادي (٨٤١/١) ، ولسان العرب لابن منظور (٧ /٢١٩).
(٤) ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٩٨/١) ، والبداية والنهاية لابن كثير(٢٩٦/٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٢٣).

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (١).

وفي غزوة بني النضير كان يهود بني النضير هم الذين نقضوا العهد وحاولوا اغتيال النبي (صلى الله عليه وسلم) (٢).

وفي الخنــدق فقد اجتمعت الأحزاب من كل حَــدَب وصـوب لحصـار المدينـة ، فكان القتـال دفـاعًا عن النفس ، والوطــن ، والديـــار، والأرض ، والعرض ، وهو ما يصوره الحق سبحانه وتعالي في سورة الأحزاب فيقول : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}(٣).

ثم يصور سبحانه وتعالى حال المؤمنين الصادقين ، فيقول : { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ

---

(١) آل عمران ، الآيات : ١٧٢-١٧٤.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١٤٨/٢) ، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٣١٧/٤) ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

(٣) الأحزاب ، الآيات: ٨ - ١٣ .

بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}(١).

وفي غزوة دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها (٢).

وفي غزوة بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًا لبغيهم وعدوانهم (٣).

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين ، وكانوا هم أنفسهم
يستعدون للقتال ، فكان لابد من مواجهتهم وكف شرهم (٤).

أما غزوة مؤتة فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي (رضي الله عنه) رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى ، فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل – ولا يزال – من أشنع الجرائم وأبشعها، يساوي بل يزيد على إعلان

---

(١) الأحزاب ، الآيات: ٢٢-٢٥.
(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٩٠/٢) ط: دار الكتب العلمية - بيروت ، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٦٩/٢) .
(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢٨٩/٢) ط: مصطفى البابي الحلبي بمصر، والروض الأنف للسهيلي (١٨/٧) ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٤) ينظر: تاريخ الطبري (١٣٥/٢) ، والبداية والنهاية لابن كثير(٢٥٣/١).

حالة الحرب ، فاشتد ذلك على النبي(صلى الله عليه وسلم)، فجهز جيشاً وسار به إليهم (١).

وفي حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء ، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين ، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة ، فكان لابد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم (٢).

وأما غزوة تبوك فكانت ردًّا لعدوان الرومان الذين كانوا يعملون على إنهاء قوة المسلمين آنذاك ، ذلك أنهم كانوا يرونها الخطر الحقيقي على سلطانهم ، فأخذوا يهددون ثغورهم ، ويعدون العدة للانقضاض عليهم ، فانتدب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه للتجهز والخروج في ساعة العسرة ، ولم يكن من الحكمة أن ينتظرهم المسلمون حتى يداهموهم في مدينتهم ، وانتهت الغزوة بفرار الروم وانسحابهم دون قتال ، وحرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على حفظ الدماء فلم يتتبعهم واكتفى (صلى الله عليه وسلم) بالردع الذي تحقق لهم (٣).

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث بيتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقرب من مكة يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه) إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة مستغيثا بقوله (٤):

يَـــا رَبّ إنّـــي نَـاشِــــدٌ مُحَمّـــــدًا

---

(١) ينظر : المغازي للواقدي (٧٥٥/١)، و تاريخ الإسلام للذهبي(٤٧٩/٢).
(٢) ينظر: المغازي للواقدي (٨٨٦/١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٥٧١/٢).
(٣) ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٤٠/١) ، وتاريخ الطبري (١٨١/٢) .
(٤) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٤/٢) ، تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥٢٣).

حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الْأَتْلَـدَا

قَدْ كُنْتُمْ وُلْـدًا وَكُنّـا وَالِـدَا

ثُمّـتَ أَسْلَمْنَـا فَلَـمْ نَنْزِعْ يَـدَا

فَانْصُـرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَعْتَـدَا

وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا

فِيهِـمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرّدَا
إنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُـهُ تَرَبّـدَا
فِي فَيْلَـقٍ كَالْبَحْـرِ يَجْـرِي
مُـزْبِـدًا
إنّ قُرَيْشًـا أَخْلَـفُـوك الْمَوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا مِيثَاقَـك الْمُوَكّـدَا
وَجَعَلُـوا لِـي فِـي كَدَاءٍ رُصّـدَا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَسْـتُ أَدْعُو أَحَـدَا
وَهُـمْ أَذَلّ وَأَقَـلّ عَـدَدَا
هُمْ بَيّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجّـدًا
وَقَتّلُونَـا رُكّعًـا وَسُجّـدَا

فقال (صلى الله عليه وسلم) : (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ) فَمَا بَرِحَ حتَىَّ مَرَّتْ سحابة فِي السَّمَاءِ فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ
لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ) (١).

ومع ذلك لما دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحًا منتصرًا، أعلن العفو العام عن أهل مكة ، وقال قولته المشهورة : (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنّي صَانِعٌ بكم؟) قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ

(١) ينظر : سيرة ابن هشام ـ ذِكْرُ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ الْمَسِيرَ إلَى مَكّةَ (٢/٣٩٣).

، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ) (١). وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل.

ومن يتتبع سائر غزوات نبينا (صلى الله عليه وسلم) وسراياه يجد أنها لا تخرج عن دائرة ردّ البغي ودفع العدوان وردع التآمر والكيد له ولدعوته ولأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ولعل من أهم أخلاق الفرسان التي أصَّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يوصي قادة جيشه بقوله : (انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبالله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلَا طِفْلًا ، وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَغُلُّوا)(٢) ، وفي رواية أخرى: (وَلَا تَغُلُّوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) (٣).

وفي وصية أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لأحد قادة جنده : " وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا ، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا ، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ ، وَلَا تَغْلُلْ ، وَلَا تَجْبُنْ "(٤).

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى- كِتَابُ السِّيَرِ- بَابُ فَتْحِ مَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى (١٩٩/٩) دار الكتب العلمية - بيروت- لبنات ، وينظر: سيرة ابن هشام- طَوَافُ الرّسُولِ بِالْبَيْتِ وَكَلِمَتُهُ فِيهِ (٤١١/٢)، والروض الأنف ٧٥/٧ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد- بَاب فِي دُعَاءِ الْمُشْرِكِينَ.
(٣) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير- بَابٌ تَأْمِيرِ الْإِمَامِ الْأُمَرَاءَ عَلَى الْبُعُوثِ، وَوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ بِآدَابِ الْغَزْوِ وَغَيْرِهَا.
(٤) رواه مالك في الموطأ كتاب الجهاد- بَابُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ فِي الْغَزْوِ.

وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا ، وبلغه (صلى الله عليه وسلم) قتل بعض الأطفال

فوقف يصيح في جنده : (مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً) (١).

وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء ، فلما رأى امرأة مقتولة ، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر (صلى الله عليه وسلم) ذلك بشدة ، وقال : (مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ)(٢)، مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط ، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما هو مقابل لدفع القتل ورد الاعتداء ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }(٣).

فالقتال في الإسلام مقصور على رد الاعتداء دون تجاوز ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }(٤) ، ويقول سبحانه : { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }(٥).

ومما يؤكد أن الحرب في الإسلام إنما هي لرد الاعتداء ودفع العدوان دون أي تجاوز أو بغي أو إسراف في الدماء ، ما شرعه

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٥٧/٢٤) برقم ١٥٥٨٩.
(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٧٠/٢٥) برقم ١٥٩٩٢.
(٣) الحج ، آية: ٤٠.
(٤) البقرة ، آية: ١٩٠ .
(٥) البقرة ، آية: ١٩٤.

الإسلام في معاملة الأسرى من حسن معاملتهم والإحسان إليهم ؛ حيث يقول الحق سبحانه : {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا}(١).

وقد دعا نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفق بالأسرى ، فقال:
(اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا) (٢)، وقد أوصى أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام .

وفي قصة " ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الحنفي" ما يؤكد كيف كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع أسراه ، ذلك أنه عندما أسر ثمامة بن أثال ورَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم)، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، يَامُحَمَّدُ ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ

---

(١) الإنسان ، الآيات : ٨-١٤.
(٢) رواه الطبراني في الكبير(٣٩٣/٢٢) برقم ٩٧٧، ط : مكتبة ابن تيمية – القاهرة .

الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ قَائِلٌ: صَبَوْتَ ، قَالَ: لاَ، وَلكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ (صلى
الله عليه وسلم) ، وَلاَ وَاللهِ لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ
فِيهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) (١).

وهذه الثقافة في معاملة الأسرى عبر عنها الشاعر الأموي الكبير (همام بن غالب التميمي) المعروف بالفرزدق ، فقال (٢):

وَلا نَقتُلُ الأسرَى وَلكِنْ نَفُكُّهمْ
إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارِمِ

أما إذا فرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا ، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك: والله إنها لإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا المسلمين في غزوة بدر : {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}(٣)، أي ويقطع دابر الكافرين المعتدين عليكم المتربصين بكم الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم ، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله ، ويقول سبحانه : { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي - بَابُ وَفْدِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَحَدِيثِ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ.
(٢) ديوان الفرزدق ، ص:٦٢٢، تحقيق: علي حسن فاعور- ط: دار الكتب العلمية.
(٣) الأنفال: الآية: ٧.

لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }(١)، ويقول سبحانه:{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}(٢)، ويقول سبحانه:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}(٣) ، ويقول سبحانه: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ
أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(٤).

وقد قلت حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم تفرض علينا الحرب ، فإن فرضت علينا فنحن رجالها :

من رامهـــا سلمـــا فتلـك يـد
أو رامهـا حربًا فنحــن
رجالهــا
لا نعتـدى أبدًا ولا نرضى
الخنـــا

---

(١) النساء : الآية : ١٠٤.
(٢) آل عمران : الآية : ١٤٠.
(٣) آل عمران : الآيات : ١٢٣-١٢٦.
(٤) الأنفال : الآيات : ٦١-٦٣.

إن الرجـولة عنـــدنـا
عنوانهــا
إحـــدى اثنتين ولا معقّب بعده
النصـرُ نصرٌ أو نُـرى
شهـداءها

وقد استفز أحد قادة الروم شاعرنا العربي أبا فراس الحمداني بقوله : أنتم - معشرَ العرب- أهل كلام ، ولا علم لكم بالحرب ، فأجابه أبو فراس في عزة وإباء شديدين وهو أسير في سجونهم وفي متناول أيديهم (١):

أتَزْعُـمُ ، يا ضخمَ اللّغَادِيـدِ، أنّنَـا
وَنحن أَسودُ الحرْبِ لا نَعرِفُ
الحرْبَا
لَقد جَمَعَتْنَـا الحَـرْبُ من قبـلِ
هَذِهِ
فكنـا بها أَسْـداً ؛ وكنتَ بـها
كلبــا
بأقلامِنَـــا أَجْحِـرْتَ أمْ بِسُيُوفِنَـا؟
وأَسْدَ الشَّرى قَدْنا إليكَ أمِ الكُتْبـا؟

وإننا لعلى يقين تام في أن منزلة الشهيد من أعلى المنازل عند الله (عز وجل) فالشهيد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، حيث يقول الحق سبحانه :{ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بالله عَلِيمًا}(٢)، ويقول سبحانه : { إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٣١ – ط: دار الكتاب العربي – بيروت .
(٢) النساء : الآيتان : ٦٩-٧٠.

اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآَنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(١) ، ويقول سبحانه : {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}(٢)، ويقول سبحانه : {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }(٣).

ولا شك أن الشهادة في سبيل الله (عز وجل) منحة إلهية يمنحها الله
تعالى لأحب خلقه إليه بعد الأنبياء والصديقين ، وقد ورد في السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة عن فضل الشهادة ، منها:

* عن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى
مِنَ الْكَرَامَةِ) (٤).

* وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قال: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ لِي: (يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟) قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: (أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟) قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: (مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ

---

(١) التوبة : الآية :١١١.
(٢) البقرة : الآية :١٥٤ .
(٣) آل عمران : الآيتان :١٦٩-١٧٠.
(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، بَاب تَمَنَي المجاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُنيا.

كِفَاحًا)- مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول- فَقَالَ: (يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ) قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ)، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }(١).

* وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ- وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ
الْمِسْكِ) (٢).

* وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ
(صلى الله عليه وسلم): (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ ستُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ) (٣).

ونؤمن كذلك إيمانًا لا يداخله أدنى شك بأنه لن تموت نفس حتى
تستوفى أجلها ورزقها ، حيث يقول سبحانه:{فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}(٤) ، ويقول سبحانه : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عَنْ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، بَاب: وَمِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .
(٢) رواه البخاري في كتاب الْوَصَايَا ، بَاب مَنْ يُجْرَحُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ).
(٣) رواه الترمذي في كتاب فَضَائِلِ الْجِهَادِ ، بَاب - في ثواب الشهيد .
(٤) النحل : الآية : ٦١.

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآَتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(١).

وأخيرًا نؤكد أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء ، والنماء
والتنمية ، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه
على الحروب والتسليح ، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم ، لانصلح حال البشرية جمعاء ، ولتغير وجه البسيطة ، ولعاش العالم كله في سلام وأمان، فإن لم يكن ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير ، فكل ما يدعو إلى السلام والبناء وعمارة الكون يتوافق وصحيح الأديان ، وكل ما يدعو إلى القتل والتخريب والتدمير يتناقض مع سائر الأديان السماوية ، بل يتناقض مع كل الأخلاق والقيم الإنسانية والأعراف والمواثيق الدولية ، مما يتطلب منا جميعًا العمل معًا على ترسيخ وتأصيل كل معاني السلام والوقوف في وجه دعاة الحرب والدمار من أجل سعادة البشرية جمعاء وتحقيق أمنها وسلامها.

* * *

(١) آل عمران : الآيات :١٤٥-١٤٨.

المبحث الثاني

فلسفـــة السلـــم

فبداية من الجذر اللغوي لكلمتي السلام والإسلام ، نجد أن الكلمتين تشتركان في جذر لغوي واحد هو "سلم" ، ووفق ما قرره العلامة اللغوي "ابن جني" في كتابه (الخصائص) في باب الاشتقاق الأكبر أن الكلمات التي تنتمي إلى جذر لغوي واحد تشترك في جوانب واسعة من المعنى كما تشترك في أصل الجذر اللغوي(١)، وإذا كانت ألفاظ:" السلم ، والسلام والإسلام" تنتمي إلى جذر لغوي واحد هو مادة "سلم" ، فإن أهم ما يميز هذا الجذر هو معاني السلم والمسالمة .

فالإسلام هو دين السلام ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) هو نبي السلام، وتحية الإسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة هي السلام ، والجنة إنما هي دار السلام ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في شأن عباده المؤمنين في الجنة:{لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}(٢) ، وتحية أهل الجنة في الجنة السلام ، حيث يقول الحق سبحانه: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}(٣)، وتحية الملائكة لهم فيها سلام ، حيث يقول الحق سبحانه:{وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}(٤) ، ويقول سبحانه : {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

---

(١) انظر الخصائص لابن جني ، باب الاشتقاق الأكبر ١٣٦/٢، ط: عالم الكتب - بيروت.

(٢) الأنعام ، آية: ١٢٧.

(٣) يونس ، آية: ١٠ .

(٤) الرعد ، الآيتان: ٢٣-٢٤.

نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}(١)، ويقول سبحانه:{ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}(٢)، ويقول سبحانه:{وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا}(٣)، ويقول سبحانه : {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا}(٤).

وقد سمى ربنا ـ عز وجل ـ نفسه باسم السلام ، فقال سبحانه: {هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ }(٥) ، ويدعونا سبحانه وتعالى إلى دار السلام فيقول (عز وجل) : { وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(٦) ، وإن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والتي تعد أعظم ليلة وأعظم منحة من الله للمسلمين ليلة سلام ، حيث يقول الحق سبحانه : {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}(٧) ، فقال : {سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} ، ولم يقل سبحانه : هي سلام ، ليجعل من لفظ السلام عمدة وأصلاً تدور عليه حركة الكون والحياة .

وقد نهانا الحق سبحانه وتعالى أن نسيء الظن بمن يلقي إلينا السلام ، فقال (عز وجل):{ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

---

(١) الزمر ، الآيتان: ٧٣-٧٤.
(٢) إبراهيم ، آية: ٢٣.
(٣) الفرقان ، آية: ٧٥.
(٤) الأحزاب ، آية: ٤٤.
(٥) الحشر ، آية: ٢٣.
(٦) يونس ، آية: ٢٥.
(٧) سورة القدر.

كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}(١).

فضرورة السلام للإنسان في الإسلام تنبع من أنه دين يعدل بين الناس جميعًا في الحقوق وفي الواجبات ، ويؤمن بقبول الآخر والمختلف ، فالله تعالى خلق الناس مختلفين ، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}(٢)، ويقول سبحانه:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }(٣) أي : لتتعارفوا وتتعاونوا وتتكاملوا ، لا لتتحاربوا وتتقاتلوا ويسفك بعضكم دم بعض ، حيث أكد سبحانه وتعالى أن خوض الناس بعضهم في دماء بعض إنما هو نوع من العذاب الذي يسلطه عليهم إذا حل بهم غضبه ، فيقول سبحانه :{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}(٤).

ويقول سبحانه: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}(٥)، ويقول سبحانه : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}(٦) ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم):{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}(٧)، ويقول سبحانه مخاطبًا إياه (عليه

(١) النساء : الآية : ٩٤.
(٢) هود ، الآيتان: ١١٨-١١٩.
(٣) الحجرات ، آية : ١٣ .
(٤) الأنعام ، آية : ٦٥ .
(٥) يونس ، آية : ٩٩.
(٦) البقرة ، آية: ٢٥٦.
(٧) الشعراء ، آية : ٣.

الصلاة والسلام) : {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}(١) ، ويقول سبحانه:{ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} ، ويقول سبحانه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(٢).

بل إننا لنرى ما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) مع سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) عندما طَعَن رجلا برُمْحِه حَتَّى قَتَلَهُ بعد أن نطق بالشهادة، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أُسَامَة ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلهَ إلاَّ اللهُ ؟!) فقال أسامة : يَا رَسُول الله ، إِنَّمَا كَانَ متعوِّذًا ، فَقَالَ : (أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلهَ إلاَّ اللهُ ؟!) يقول أسامة : "فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ
حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ"(٣).

وفي رواية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ
قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَهَا أَمْ لاَ؟)(٤) ، وعند الطبراني: (هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكَ؟)(٥) ، مما يؤكد أن الإسلام حريص كل الحرص على حفظ الدماء وأن الأصل في الإسلام هو عصمتها لا سفكها.

وتعد فلسفة السلم هي القضية الراسخة في الفكر الإسلامي ، حيث يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي

---

(١) الكهف : آية : ٦ .
(٢) القصص : آية : ٥٦ .
(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي- بَابُ بَعْثِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ إِلَى الحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، ومسلم في الإيمان- بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .
(٤) رواه أبو داود في كتاب الجهاد- باب عَلَى مَا يُقَاتَلُ الْمُشْرِكُونَ .
(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٨ / ٢٢٦ .

السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}(١).

ووفق مفهومي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله به عباده المؤمنين ، ومن يسلك مسالك الفرقة والشقاق ، والتكفير والتفجير ، والخوض في الدماء ، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا ، متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

وقد كان من منهج نبينا (صلى الله عليه وسلم) أنه يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، أما معاملته (صلى الله عليه وسلم) لغير المسلمين فترسخها وتتوجها "وثيقة المدينة" التي رسخت لأسس التعايش السلمي بين البشر في أسمى معانيه الإنسانية .

وتعد هذه الوثيقة من أفضل النماذج في تاريخ البشرية للعيش الإنساني السلمي المشترك ، وإننا في هذا المناخ الثقافي والسياسي الذي يعيشه عالم اليوم ، المشحون بالصراعات ومحاولات الاستقطاب ، لفي أمس الحاجة إلى العودة إلى هذا التراث العظيم وهذا التطبيق الراقي لحق الإنسان في الحياة والمواطنة المتكافئة ، واستلهام روح التسامح التي يفيض بها تاريخنا الحضاري الذي يؤصل للتعايش المشترك على أسس وطنية وإنسانية راقية.

فقد وضعت هذه الوثيقة أسس التعايش الذي يريده الإسلام لأبناء المجتمع الواحد على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم ، حيث تنص على أن يهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جسم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة ، مع المؤمنين أمة ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه

---

(١) البقرة ، آية: ٢٠٨.

، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وأن من خرج منهم فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن ، إلا من ظلم أو أثم ، وأن الله (عز وجل) جار لمن برَّ واتقى، وكذلك محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١).

فأي إنسانية ، وأي حضارة ، وأي تعايش سلمي ، أو تقدير لمفاهيم الإنسانية يمكن أن يرقى إلى ما كان من تسامح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنصافه؟! .

ألا ترى إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) : (لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ) قبل أن يقول : (لِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ)، ليكون في أعلى درجات الإنصاف والتسامح .

لقد علمنا ديننا إنصاف الآخر حتى في طريق المحاورة والجدل بالتي
هي أحسن فقال سبحانه :{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ}(٢)، وقال سبحانه :{ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ}(٣) ، وقال سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) : {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}(٤)، مع المعرفة الواضحة التي لا لبس فيها بمن هو على هدى ومن هو في ضلال مبين ، وهو ما يسميه علماء البلاغة "الإنصاف" ، وعليه قول حسان بن ثابت (رضي الله عنه) يرد على أبي سفيان بن الحارث ،

---

(١) سيرة ابن هشام -كِتَابُهُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمُوَادَعَةُ يَهُودَ.
(٢) النحل ، آية: ٢٥.
(٣) العنكبوت : ٤٦.
(٤) سبأ : آية :٢٤.

وكان قبل إسلامه قد هجا نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، فأجابه سيدنا حسان(١):

هجوتَ محمــدًا، فأجبتُ عنــهُ
وعنــدَ اللهِ في ذاكَ
الجـــــزاءُ
أتَهْجُـوهُ ، وَلَسْـتَ لَهُ بكُــفْءٍ
فشَرُّكُما لِخَيـرِكُمَـا الفِــداءُ
فإنّ أبي وَوَالِـدَهُ وَعِرْضــي
لعـرضِ محمـدٍ منكمْ وقــاءُ

ولم يقف الأمر عند "وثيقة المدينة" وحدها ، فقد كان النبي (صلى الله
عليه وسلم) شديد الحرص على صون حقوق الإنسان واحترام إنسانيته وآدميته واختياره ، ولهذا جاء في إحدى رسائله إلى أهل نجران : (وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَمِلَّتِهِمْ ، وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ ، وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ ، وَأَنْ لَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ ، وَلَا يغيّروا أسقفًا عن أسقفيته وَلَا رَاهِبًا مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ ، وَلَا وَاقِهًا مِنْ وُقَيْهَاهُ ، وكل ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ) (٢).

وعندما جاءه (صلى الله عليه وسلم) وفد نجران وحان وقت صلاتهم سمح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بإقامة صلاتهم في مسجده المبارك (صلى الله عليه وسلم)، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (دَعُوهُمْ)، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ(٣).

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٠ – دار الكتب العلمية - بيروت.
(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة - بَاب وَفْدِ نَجْرَانَ وَشَهَادَةِ الْأَسَاقِفَةِ لِنَبِيِّنَا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِأَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ.
(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٥٧٣/١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣٥٧/١ ، وزاد المعاد لابن القيم ٦٢٩/٣.

وعندما جاءه (صلى الله عليه وسلم) وفد نصارى الحبشة استقبلهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأكرمهم بنفسه وقال: (إنَّهمْ
كَانوا لأصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ) (١).

وعلى هذا النهج النبوي سار الخلفاء الراشدون ، فقد اقتدى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالنبي (صلى الله عليه وسلم) عندما ضمن لأهل إيلياء (القدس) من المسيحيين أمنهم ، وأعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسائر ملتها ، وأنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها شيء ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ومن أحب أن يبقى على دينه فعلى المسلمين أن يبلغوه مأمنه دون غدر أو خيانة ، ففي هذا العمل نبل وشهامة وتسامح واحترام للأديان الأخرى.

وتُعد هذه العهدة العمرية التي أبرمها الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع أهل إيلياء صفحة بيضاء ناصعة في التسامح الديني ، وصفحة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية على العموم .

وفي هذا كله ما يؤكد عظمة الإسلام في تعامله مع غير المسلمين وإنصافهم ، وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام ، حيث يقول الحق سبحانه : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (٢)، ويقول (عز وجل) على لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم): { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة - بَاب الْهِجْرَةِ الْأُولَى إِلَى الْحَبَشَةَ، ثُمَّ الثَّانِيَةِ وَمَا ظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ وَتَصْدِيقِ النَّجَاشِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْقُسُسِ وَالرُّهْبَانِ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).
(٢) البقرة ، آية:٢٥٦.

وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}(١) ، ويقول سبحانه :{ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}(٢) .

وهذا شاعر العربية الكبير أحمد شوقي يقول في تأصيل مبدأ التسامح
وترسيخ أسس التعايش السلمي (٣):

أعَهِدْتَنَـــا والقِبْــط إلاّ أمّـــة ً
في الأرض واحدة نعيـش سلامًا
نعلي تعاليمَ المسيـح لأجلهـــم
ويوقِـرون لأجلنــا الإسلامــا
الدِّيـنُ للدّيّــانِ جـلَّ جلالُــه
لو شــاءَ ربُّـكَ وَحَّــدَ الأقواما
هذي ربوعكمُ ، وتلـك ربوعنــا
مُتقابليــن نعالــج الأيامـــــا
هــذي بيوتكم ، وتلك بيوتنــا
متعانقيـــن مــودة ووئامًـــا[٤]
هــذي قبوركمُ ، وتلك قبورنــا
مُتجاورينَ جَمــاجمًـــا وعِظامــا
فبحُرمة ِ المَوْتَـى ، وواجبِ حقّهم
عيشـوا كما يقضي الجـوارُ كرامــا

(١) الشورى ، آية:١٥.
(٢) المائدة ، آية:٤٢.
(٣) ديوان أحمد شوقي ص ٥١٢ مع إعادة صياغة بعض الجمل.
(٤) هذا البيت من إضافتنا.

وعلى الجانب الآخر من التسامح والتسامي المسيحي يقول الشاعر المسيحي اللبناني "محبوب الخوري" من مهجره بالمكسيك :

قالوا: تُحِبُّ العُرْبَ؟ قلتُ:
أُحبُّهم
يقضي الجوارُ عَلَـيَّ
والأرحــامُ
قالوا: لقد بَخلوا عليك؟ أجبتُهم
أهلـــي وإن ضنّوا عليَّ
كـــرامُ
قالوا: الديانة؟! قلتُ: جيلٌ
زائـلٌ
وتزولُ معه حَـــزازةٌ وخِصــامُ
ومحمدٌ بطـلُ البريــــةِ كلِّهـــا
هو للأعــاربِ أجمعيـــنَ إمــامُ

وكان مكرم عبيد باشا يقول :
نحن مسلمون وطناً ونصاري دينًا، اللهم يا رب المسلمين والنصارى اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارًا، واجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين ، وهذا هو التسامح الذي ننشده ونسعى أن يصير ثقافة سائدة وواقعًا معاشا بيننا جميعًا.

إن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه ، مع أصدقائه، مع جيرانه ، مع النبات والحيوان والجماد ، ألم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَـهُ النَّاسُ عَلَى دِمَـائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (١)، وفي رواية عَبْد اللهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)(٢)، وقال (صلى الله عليه

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.
(٢) رواه مسلم في كِتَاب الْإِيمَان - بَاب بَيَانِ تَفَاضُلِ الْإِسْلَامِ ، وَأَيُّ أُمُورِهِ أَفْضَلُ.

وسلم) : (وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، قِيلَ : وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (١)، وزاد الإمام أحمد : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا بَوَائِقُهُ ؟ قَالَ : (شَرُّهُ) (٢)، ولما سئل (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة إلا أنها تؤذي جيرانها، فقيل له : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ فُلاَنَةً تَقُومُ اللَّيْلَ ، وَتَصُومُ النَّهَارَ ، وَتَفْعَلُ ، وَتَصَّدَّقُ ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ خَيْرَ فِيهَا ، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) (٣).

فقد كان (صلى الله عليه وسلم) بحق رحمة للعالمين ، يؤصل للسلام الكوني ، ودخل النبي (صلى الله عليه وسلم) بُسْتَانًا لِرَجُلٍ من الأَنْصَارِ فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟)، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ ، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ)(٤).

وعن ابن مسعودٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كنَّا مَعَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سَفَرٍ ، فانْطَلَقَ لحَاجَتِهِ ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً (٥) مَعَهَا فَرْخَانِ ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا ، فَجَاءتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ

---

(١) رواه البخاري في كِتَاب الأَدَبِ - باب إِثْمِ مَنْ لا يَأْمَنُ جارُهُ بوائِقَهُ.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : ٤٥/ ١٣٩.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد - بَاب لَا يُؤْذِي جَارَهُ.
(٤) رواه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - باب مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الدَّوَابِّ وَالْبَهَائِمِ.
(٥) الحمرة : بِضَمِّ الْحَاءِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ المفتوحة ، وَقَدْ تُخَفَّفُ: طَائِرٌ صغير كالعصفور (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤٣٩/١) ط: المكتبة العلمية - بيروت.

(ترفرف بأجنحتها) فَجَاءَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : (مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا ؟ ، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْها) (١).

ألم يخبرنـا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن امرأة دخلت النـار في هرة حبستها حتى ماتت، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّـارَ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَـا وَلَا سَقَتْهَـا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ) (٢) .

وفي المقابل فإن الله (عز وجل) أدخل رجلا الجنة بسبب رحمته بكلب وجده يلهث من العطش فروى كبده ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ) (٣) .

هذا هو السلام في الإسلام ، سلام مع النفس ، سلام مع الآخر ، سلام مع المجتمع كله، سلام مع الحيوان ، سلام مع الجماد ، سلام مع الكون كله ، وهو ما يجعلنا نؤكد وباطمئنان أن ديننا هو دين السلام ، وأن فلسفة السلام هي الفلسفة الأصيلة الراسخة في الإسلام.

* * *

---

(١) رواه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - باب في كَرَاهِيَةِ حَرْقِ الْعَدُوِّ بِالنَّارِ.
(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء- بَاب حَدِيثِ الْغَارِ ، ومسلم في كتاب السَّلَامِ - بَاب تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهِرَّةِ.
(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوءِ - بَاب المَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ شَعَرُ الإِنْسَانِ.

المبحث الثالث

فلسفــة الحكــم

فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله (عز وجل) ، فكل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار ، ويعمل على عمارة الكون وسعادة البشر يتفق ومقاصد الأديان، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو التخلف لا علاقة له بالأديان، بل إنه متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية ، على أن الإسلام لم يضع قالبا جامدًا صامتا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه ، وإنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها.

ولعل العنوان الأهم الأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه ، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة ، بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة فهو حكم رشيد معتبر.

وتحت هذا العنوان الرئيس تتداعى تفاصيل كثيرة تهدف في مجملها إلى

تحقيق العدل بكل ألوانه السياسية والاجتماعية والقضائية بين البشر جميعًا، وعدم التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق ، فلا إكراه في الدين ، يقول الحق ـ سبحانه ـ على لسان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) في مخاطبة كفار مكة : {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}(١).

فكل حكم يعمل على تحقيق ذلك ويسعى إلى توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وبنًى تحتية من : صحة ، وتعليم ، وطرق ، ونحو ذلك مما لا تقوم حياة البلاد

(١) الكافرون ، آية :٦.

والعباد إلا به، فإنه يُعدُّ حكمًا رشيدًا سديدًا موفقًا ، مرضيًا عند الله وعند الناس إلا من حاقد أو حاسد أو مكابر أو معاند أو خائن أو عميل .

ويؤكد أهل العلم والرأي والفكر أن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة.

أما من يتخذون من قضية الخلافة وسيلة للمتاجرة بالدين واللعب بعواطف العامة محتجين ببعض النصوص التي يسقطونها إسقاطا خاطئًا دون أي دراية بفقه الواقع أو تحقيق المناط من جهة ، ويجعلونها أصل الأصول الذي عليه مناط الإيمان والكفر من جهة أخرى ، فإننا نرد عليهم بما أكد عليه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور /أحمد الطيب شيخ الأزهر في كلمته التي ألقاها في مؤتمر" الأزهر في مواجهة الإرهاب والتطرف " من أنه لا نزاع بين أهل العلم المعتبرين أن الخلافة أليق بالفروع وأقرب لها ، ومذهب الأشاعرة على أنها فرع لا أصل ، وذكر فضيلته ما ورد في كتاب "شرح المواقف" الذي يُعد أحد أعمدة كتب المذهب الأشعري، حيث ذكر مؤلفه في شأن الإمامة أنها " ليست من أصول الديانات والعقائد عندنا بل هي فرع من الفروع" ، ثم علق فضيلة الإمام قائلا : فكيف صارت هذه المسألة التي ليست من أصول الدين عند أهل السنة والجماعة فاصلاً عند هذا الشباب بين الكفر والإيمان ، وفتنة سُفِكَت فيها الدماء ، وخُرّب العمران، وشُوّهت بها صورة هذا الدين الحنيف ؟!

وعندما تحدث النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الجامع عن الإيمان والإسلام والإحسان لم يجعل (صلى الله عليه وسلم) الخلافة ركنا من أركان الإيمان أو الإسلام ، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ،

حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ: صَدَقْتَ ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) ، قَالَ: صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ ، قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ ، قَالَ:(مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ)، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ، قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي: (يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟) قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) (١).

أما جملة الأحاديث التي تتحدث عن الخلافة والبيعة فيمكن أن تُحمل في جملتها في ضوء معطيات عصرنا الحاضر على ضرورة إقامة نظام حكم عادل رشيد له رئيس ومؤسسات ، يعمل على تحقيق العدل بين الناس ، وتحقيق مصالح البلاد والعباد ، ويستند إلى الشورى والإفادة من الكفاءات وأهل الخبرة والاختصاص ، بحيث لا يترك الناس فوضى لا سراة لهم ، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء والمسميات طالما أنها تحقق الأهداف والغايات التي يسعى الإسلام لتحقيقها بين الناس جميعًا بما يحقق صالح دينهم ودنياهم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان - بَاب معرفة الْإِيمَانِ ، وَالْإِسْلَامِ ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ.

ومن ثم فإن قيام بعض المجتمعات بسن قوانين لتنظيم أمور حياتها بما يحقق العدل والمساواة ، ويعمل على القضاء على الجرائم بشتى أنواعها ، ويؤدي إلى عمارة الكون ، وتحقيق الأمن والاستقرار والتقدم والرخاء لهو مقصد هام من مقاصد التشريع في بناء الدول واستقرارها، ومما لا غنى عنه فيما لم يرد فيه نص قاطع حاسم قطعي الثبوت والدلالة بإجماع أهل العلم والفقهاء المعتبرين ، ذلك أن دراسة المستجدات والقضايا العصرية مما يحتاج إلى اجتهاد فقهي وتشريعي بما يناسب الزمان والمكان .

وبما أن الله (عز وجل) لم يخص بالعلم ولا الفقه قومًا دون قوم أو جيلا دون جيل ، ولم يقصر الاجتهاد الفقهي ولا العلمي على عصر دون غيره ، بل إن العلماء المتخصصين لا يرون آفة أشد خطرًا من الجمود والانغلاق ، ومحاولة فرض بعض الفتاوى التي ناسبت عصرًا أو مكانًا أو حالاً معينًا على كل العصور والأمكنة أو الأحوال دون مراعاة لتغير كل ذلك أو بعضه ، مؤكدين أن الفتوى قد تتغير بل قد يتحتم أن تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الحال ، مما يتطلب تعاونًا وثيقًا بين المؤسسات الدينية والبرلمانية والتنفيذية لاقتحام عباب الواقع في شجاعة وموضوعية تامين دون مساس بثوابت الشرع الحنيف .

وهنا نؤكد على عدة أمور ، أهمها :

١- أنه لا تعارض بين النقل والعقل ، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد ، فالإسلام دين الفطرة ، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالاً، ويكفي أن نشير إلى تلك الآيات الداعية إلى التأمل والتفكر والتدبر والنظر واستخدام العقل ، كقوله تعالى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}(١)، وقوله تعالى:{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}(٢) ، وقوله تعالى : { قُلْ

(١) العنكبوت : آية : ٤٣.
(٢) يوسف : آية : ١١١.

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}(١)، وقوله تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ}(٢) وقوله تعالى : {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}(٣)، ويقول سبحانه { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }(٤).

ولما نزل قوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}(٥)، قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا) (٦).

كما أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم، بل على العكس من ذلك فإن الإسلام دين العلم ، وأمته أمة اقرأ ، ويكفي أن نشير إلى أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}(٧)، ويقول سبحانه

---

(١) الأنعام : آية : ١١.
(٢) يوسف : آية : ١٠٩.
(٣) الحج : آية : ٤٦.
(٤) فاطر: الآيات :٢٧-٢٨.
(٥) آل عمران : آية : ١٩٠.
(٦) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب الرقائق – باب التوبة ٣٨٦/٢ .
(٧) العلق : الآيات : ١-٥.

:{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}(١) ، ويقول سبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}(٢).

فالإسلام يدعونا إلى الأخذ بأقصى أسباب العلم ويحثنا عليه ويأمرنا به ، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف ، وقد جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) فداء أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

٢- أنه لا تعارض بين الدين والدولة ، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد ، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، إن تدينا رشيدًا صحيحًا واعيًّا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح .

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف ، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة ، إلى الصدق ، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر ، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد ، والتخريب والدمار ، والهدم واستباحة الدماء والأموال ، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا وأن نقف له بالمرصاد ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق ، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل ،

---

(١) الزمر : آية : ٩.
(٢) الأنبياء : آية :٧.

موقنين أن الصراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر، حيث يقول الحق سبحانه : { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}(١).

إن مثل الحق والباطل كمثل الكلمة الطيبة التي هي حق ، والكلمة الخبيثة التي هي باطل:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}(٢).

على أن النصر لا محالة للحق ولأهله ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(٣)، ويقول سبحانه:{ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(٤)، ويقول سبحانه:{ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}(٥).

إننا لأصحاب قضية عادلة ، قضية دين ، وقضية وطن ، فكل ما يدعو للبناء والتعمير ، والعمل والإنتاج ، وإسعاد الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم ، لهو الدين الحق والإنسانية الحقيقية ، وكل ما يدعو للفساد والإفساد ، والتخريب والقتل ، يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

---

(١) الأنبياء : آية :١٨.
(٢) إبراهيم ، الآيات : ٢٤-٢٦ .
(٣) الصافات ، الآيات : ١٧١-١٧٣ .
(٤) محمد ، الآية : ٧ .
(٥) الروم ، الآية : ٤٧.

الديـن والدولة لا يتنـاقضـان ، الـدين والـدولة يرسخان معا أسس
المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنـا ، فالأديان رحمـة ، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء .

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

ونؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتًما إما أنهم لا يفهمون الأديان فهما صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًا ، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتهما معًا.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها ، وإعلاء دولة القانون، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيّا كان مصدر هذه السلطات ، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى ، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء
الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة(١).

٣- أن أهم ما يميز الحكم الرشيد في الإسلام هو العدل ، العدل في الرضا والغضب ، مع الصديق والعدو ، حيث يقول سبحانه : { إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى

(١) كتابنا: الدين والدولة ، ص٧-٩ وهو نص مقال نشرناه بصحيفة الأهرام المصرية بتاريخ: ١٧ فبراير ٢٠١٧م .

عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}(١)، ويقول الحق سبحانه:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا }(٢) ، ويقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}(٣)، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(٤)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا في اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً ففاضت عَيْنَاهُ)(٥)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ) (٦) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ

---

(١) النحل : الآية : ٩٠ .
(٢) النساء : الآية : ٥٨.
(٣) النساء : الآية ١٣٥.
(٤) المائدة : الآية ٨.
(٥) رواه البخاري في كتاب الأَذَانِ ، باب مَنْ جَلَسَ فِي المَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلاَةَ وَفَضْلِ المَسَاجِدِ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب فَضْلِ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ.
(٦) رواه أحمد في مسنده برقم ١١٥٢٥ .

الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ) (١)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ ، أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ
يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا) (٣).

وهو ما أكده سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) في أول خطبة له عند تولي الخلافة حين قال : أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة ، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم
الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا
طاعة لي عليكم(٤) ، ولم يكتف بذلك قولا ، إنما حققه قولاً وعملاً.

وهو ما أكده وانتهجه أيضًا سيدنا عمر (رضي الله عنه) عند توليه الخلافة فكرر المعاني نفسها في أول خطبة له ، وها هي رسالته التي أرسلها إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) يقول فيها : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الصِّيَامِ ، باب فِي الصَّائِمِ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ.
(٢) مسند أحمد برقم ٢٢٣٠٠ .
(٣) رواه مسلم في كتاب الْإِمَارَةِ ، باب فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ ، وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٨٢/٢ ، ط: دار الجيل – بيروت – لبنان.

مُتَّبَعَةٌ ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ ، وَوَجْهِكَ، وَعَدْلِكَ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَخَافَ ضَعِيفٌ جَوْرَكَ ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا ، لَا يَمْنَعُكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ بِالْأَمْسِ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُبْطِلُهُ شَيْءٌ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ ، الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يُخْتَلَجُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ ، وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى ، وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِي أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً وَإِلَّا وَجَّهْتَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى ، وَأَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ ، الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَيْنَهُمْ ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ ، أَوْ مُجَرَّبًا فِي شَهَادَةِ زُورٍ ، أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ ، فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ إِيَّاكَ وَالضَّجَرَ ، وَالْقَلَقَ ، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ بِهَا الْأَجْرُ وَيَحْسُنُ بِهَا الذِّكْرُ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصُ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ، شَانَهُ اللهُ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ " (١).

وهو ما يصوره حافظ إبراهيم في قصيدته الرائعة المسماة بالعمرية ، حيث يقول (٢):

و راع صاحب كسرى أن رأى عمرا
بين الرعـــــية عطلا وهو راعيهـا
وعهـــــده بملوك الفرس أن

(١) سنن الدارقطني (٥/ ٣٦٩) ، وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٧٦).
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١/٨٣-٨٥.

لهـا
سـورا من الجند و الأحراس
يحميها
رآه مستغرقـــا في نومــه
فرأى
فيـــــه الجلالة في أسمى
معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح
مشتملا
بــبردة كاد طول العــــهد
يبليهـا
فهـــان في عينــــه ما كـان
يكبــره
مــن الأكــاسر والــــدنيا بأيديها
و قــال قولـــة حق أصبحت مثـلا
وأصبــح الجيــل بعد الجيل
يرويها
أمنـــت لما أقمــــت العدل بينـهـم
فنــمت نـــوم قرير العيـن
هانيـهـا
إن جــــاع في شـــدة قومٌ
شركتهم
في الجــوع أو تنجلي عنهم
غواشيها
جـــوع الخليفـــة و الدنيـا
بقبضتـه
في الزهــد منزلـــة سبحان
موليهـا

فمــن يباري أبـا حفص و
سـيرتـه
أو مـن يحـــاول للفـاروق
تشبيها

وكتب أحد الولاة إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أن اللصوص كثروا بالمدينة فكتب إليه: أن حَصِّنها بالعدل(١) ، وقد قالوا : إن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة ، وقال أحد البلغاء : " إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ ، فلا تخالفه في ميزانه ، ولا تعارضه في سلطانه ، واستعن على العدل بخلّتين: قلّة الطّمع ، وكثرة الورع "(٢).

وكان ابن حزم رحمه الله يقول : أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه ، وعلى الحقّ وإيثاره ، وقال بعضهم : الدنيا تدوم مع

العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام(٣).

٤- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني ، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

٥- أن السلطة قد صارت في منظور الجماعات المتطرفة وأيدولوجياتها غاية لا وسيلة ، ويتمحور فكر هذه الجماعات حول معنى واحد ربما لا ثاني له ، إما أن تحكم ، وإما أن تخرب لتسقط أنظمة الحكم ، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح ، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق هذه الغاية لهم هو في أيدلوجياتهم سبيل من سبل التمكين التي يجب الأخذ بها ، حتى لو كان ما

---

(١) حلية الأولياء ٣٠٥/٥ ط: دار الكتاب العربي – بيروت .
(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) (٧ /٢٧٩٣) دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.
(٣) انظر المصدر السابق (٧/ ٢٨١٦).

سيؤدي إليه ذلك إنما هو سفك الدماء أو ترويع الآمنين أو إسقاط الدول ، أو تفكيكها ، أو تفتيتها ، أو تدميرها ، أو تعريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر ، لذا لا يتوقع من عناصر هذه الجماعات أي خير لأوطانهم ، بل إنهم وبال وشر أينما حلوا أو حتى ارتحلوا ، لأن الشر يرحل معهم ويرتحل بارتحالهم، وهم على الجملة لا يؤمنون إلا بأنفسهم ، لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية ، فهم على استعداد للتحالف مع العدو ، مع الصهيونية العالمية ، بل مع الشيطان نفسه ، ومع كل من يوهمهم بمساعدتهم على الوصول إلى السلطة وتحقيق ما يتمنونه من ورائها، وهم لا يعتبرون ذلك لا عمالة ولا خيانة ، إنما يعتبرونه تحالفات وقتية أو استراتيجية طبيعية طالما أنها تصل بهم إلى مرادهم في تحقيق السلطة التي لا يَعُونَ أي شيء عن مقوماتها أو متطلباتها سوى أنها ستحقق لهم ما يطمحون إليه من أمر دنياهم مغطى بما يوهمون به العامة والدهماء من أنهم إنما يعملون لأمر دينهم ، والأديان براء من كل ذلك ، وأبعد ما تكون عن هذه العمالات والخيانات وهذا التفكير الشاذ المنحرف .

وفي سبيل الوصول إلى مآربهم يتذرعون بذرائع منها أن بعض الحكام لا يحكمون بشرع الله ، على أنك عندما تناقش عناصر هذه الجماعات عن مفهوم شرع الله تجدهم خاويّ الوفاض ، وقد بينا ذلك واضحًا جليًا في كتابي : "مفاهيم يجب أن تصحح" ، و"ضلالات الإرهابيين وتفنيدها " ، وأكدنا أن الالتزام بما أنزل الله (عز وجل) من شرع لا يمنع احتكام البشر إلى قوانين يضعونها في إطار مبادئ التشريع العامة وقواعده الكلية ، وفقًا لتغير الزمان والمكان ، ولا يكون الاحتكام لتلك التشريعات الوضعية مخالفًا لشرع الله ما دام أنه يحقق المصالح العامة للدول والشعوب والأفراد والمجتمعات ولا يحل حرامًا أو يحرم حلالا أو يتناقض مع ثوابت الشرع أو ينال منها .

على أن أهم ما نحذر منه هو ما تنطوي عليه هذه الجماعات من حقد على المجتمع وتربص به وعمل على الإيقاع به بشتى الطرق سواء بالتخريب المباشر أم بالتعويق والتعطيل

والتشويه وقلب الحقائق ، ولهم من أساليب المكر مالا يمكن أن يفكر فيه سوى جماعات الهدم ومنزوعي الوطنية ، لدرجة أن بعضهم أيا كانت مهنته وكان أمام منتج وطني وآخر غير وطني فإنه يفضل غير الوطني لتهوي صروح الصناعة الوطنية ، من باب أن هذا يؤدي إلى إضعاف الدولة وسقوطها وعدم تمكينها ، خابوا وخسروا { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(١).

كما أننا نحذر من حملات التشويه وقلب الحقائق من خلال المواقع الإلكترونية وبعض الوسائل الإعلامية التي تتسلل عبرها هذه العناصر محترفة الكذب والتدليس ، وعلينا أن نتثبت ونتبين حقائق الأخبار حتى لا نقع في شراك ما تريده هذه الجماعات من فوضى ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}(٢)، ويقول (عز وجل):{ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (٣).

إننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير ، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء ، وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر وبخاصة فيما يتصل بأحكام الحرب والسلم والحكم ، ولا سيما في الرسائل العلمية والبحثية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع ، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة.

* * *

---

(١) الأنفال : الآية : ٣١.
(٢) الحجرات : الآية : ٦.
(٣) يوسف : الآية : ٢١.

□

الخـاتمـة

وختامًا ، وبعد رحلة فكرية طويلة مع فلسفة الحرب والسلم والحكم ، لخصتها في هذه الصفحات تجلية للحق ، وتصويبا للمفاهيم الخاطئة ، آثرت فيها الإيجاز على القارئ، ومراعاة لوتيرة العصر المتسارعة في كل شيء ، يسرني أن أسجل بين يدي القارئ الكريم بعض الإضاءات التي تضمنها البحث ، وهي:

١- أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب ، أو فلسفة السلم ، أو فلسفة الحكم ، حتى أن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السلم ، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السلم ، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها ، ومن ثم وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها، ثم الانتقال من التكفير إلى التفجير ، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم وحصره في قضية الخلافة ومحاولة فرضها بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا ، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام ، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات.

٢- أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان ، وهي محصورة في رد الاعتداء ودفع الظلم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } ، ويقول سبحانه:{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }.

٣- أن من أهم أخلاق الفرسان التي أصَّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين ، ولا هدم للبنيان ، ولا تخريب للعمران ، فالإسلام دين بناء لا هدم.

٤- أننا إذا فرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل في الدفاع عن أوطاننا ، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك: والله إنها لإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة .

٥- أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء ، والنماء والتنمية ، وعلاج المرضى ، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح ، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم ، لانصلح حال البشرية جمعاء ، ولتغير وجه البسيطة ، ولعاش العالم كله في سلام وأمان ، فإن لم يكن ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير.

٦- تعد فلسفة السلم هي القضية الراسخة في الفكر الإسلامي ، حيث يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }.

ووفق مفهومي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله به عباده المؤمنين ، ومن يسلك مسالك الفرقة والشقاق ، والتكفير والتفجير ، والخوض في الدماء ، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا ، متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

٧- أن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه ، مع أصدقائه ، مع جيرانه ، مع النبات والحيوان والجماد ، مع الكون كله ، ألم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) :

(الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ).

٨- فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس ، فكل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار ، ويعمل على عمارة الكون وسعادة البشر يتفق ومقاصد الأديان ، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو الهدم ، أو التخريب لا علاقة له بالأديان، بل إنه متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية .

٩- أن الإسلام لم يضع قالبا جامدًا صامتا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه ، وإنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها.

ولعل العنوان الأهم الأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد ، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه ، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة فهو حكم رشيد معتبر.

١٠- أنه لا تعارض بين النقل والعقل ، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد ، فالإسلام دين الفطرة، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالاً.

١١- أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم ، بل على العكس من ذلك فإن الإسلام دين العلم ، وأمته أمة اقرأ ، وإنه ليدعونا إلى الأخذ بأقصى
أسباب العلم ويحثنا عليه ، ويأمرنا به ، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف ، وقد جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) فداء أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد

منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

١٢- أنه لا تعارض بين الدين والدولة ، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد ، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء ولن تكون ، إن تديننا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة ، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف ، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة ، إلى الصدق ، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر ، وهو ما ندعمه جميعًا ، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد، والتخريب والدمار ، والهدم واستباحة الدماء والأموال، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا وأن نقف له بالمرصاد ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

١٣- أن فلسفة الإسلام الحقيقية تقوم على العدل فإن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة ، وقد قالوا : إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

١٤- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني ، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

١٥- أن السلطة قد صارت في منظور الجماعات المتطرفة وأيدولوجياتها غاية لا وسيلة ، ويتمحور فكر هذه الجماعات حول معنى واحد ربما لا ثاني له إما أن تحكم وإما أن تخرب

لتسقط أنظمة الحكم ، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح ، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق هذه الغاية لهم هو في أيدلوجياتهم سبيل من سبل التمكين التي يجب الأخذ بها ، حتى لو أدى ذلك إلى سفك الدماء ، وترويع الآمنين ، أو إسقاط الدول ، أو تفكيكها ، أو تفتيتها ، أو تدميرها ، أو تعريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر.

١٦- أننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير ، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر وبخاصة فيما يتصل بأحكام الحرب والسلم والحكم ، ولا سيما في الرسائل العلمية والبحثية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع ، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة .

١٧- أننا في حاجة إلى شراكة حقيقية لا إقصاء فيها تجمع بين العلماء والفقهاء والمفكرين والمثقفين وقادة الفكر والرأي ، لنعمل معًا على تجديد وتطوير وتصويب خطابنا الفكري والثقافي والديني والعلمي ، في إطار من التعاون لا التقابل ولا التناقض ، وتركيز كل منا فيما يتقنه ويحسنه ، قصد خدمة ديننا ووطننا وأمتنا ، مجتمعين على كلمة سواء.

١٨- أننا يجب أن نفرق بين إسلامية المنهج الذي يجب ألا يتعارض أو يتناقض مع المقاصد الكلية للشرع الحنيف التي تدعو في جملتها إلى العدل والمساواة والكرامة الإنسانية واحترام آدمية الإنسان ، وبين المتاجرة بهذه المبادئ واحتكار فهمها أو تطبيقها ، ومحاولات تسويق بعض الجماعات الإرهابية والمتطرفة أنفسها على أنها حامية حمى الدين ، واختزال هذه الحماية في أنفسهم ، بحيث لو حكم غيرهم بكل

معاني العدل والنزاهة والشفافية لكان حكمه غير إسلامي وغير مقبول ، لا لشيء إلا لأنه لا ينتمي إليهم ، ولا يطبق أيدولوجيتهم ومخططاتهم ، ولا يحقق مصالحهم الخاصة ، أما إذا آل الحكم إلى أحد كوادرهم الحزبية أو الأيدولوجية ، فهو الحاكم المنزه الذي لا يخطئ والذي يجب تبرير أخطائه وقلب سيئاته حسنات حتى لو كان في أعلى درجات الديكتاتورية والإقصاء على نحو ما كان من رئيس الجماعة المعزول الذي أصدر إعلان الجماعة غير الدستوري المكبل المكمم الذي تضمن أن جميع قرارات الرئيس نهائية وباتة ، ومتجاوزة لكل دوائر القضاء ، وغير قابلة لأي نقض أو طعن ، بحيث يتطابق إعلانه هذا مع ما كان من فرعون مع قومه حين قال لهم : {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }(١).

وأخيرًا ، فإنني قد بذلت وُسْعي واجتهدت ، فإن كنت قد وفقت وهديت إلى سبيل الرشاد فهذا فضل الله ومنته ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وإن كانت الأخرى فالكمال لله وحده ، والعصمة فقط لأنبيائه ورسله ، وحسبي أني حاولت واجتهدت وسلطت الضوء على قضية في غاية الأهمية والحيوية يمكن أن يسهم بيان وجه الحق فيها ، وتنقيتها مما علق بها من شوائب أو مفاهيم خاطئة ألصقت بها ، أو أقحمت عليها جهلا أو عمدا ، في علاج كثير من أوجه الخلل ، ودحض مسالك الجدل التي يتشدق بها مُنَظِّرو الجماعات المنحرفة والمتطرفة.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) غافر : الآية : ٢٩.

فهرس الموضوعات

*　　*　　*